الفصل الثاني

مرت الأيام وأبى وعمي لم يعودا ولم نسمع عنهما أي خبر، جدي وأمي وزوجة عمي لم يتركوا واحداً أو واحدة يمكنهم أن يتوجهوا إليهم بالسؤال عنهما إلا وسألوهما دون جدوى، وهمنا كان مثل هم الكثير من الجيران فالمفقودون من جنود جيش تحرير فلسطين أو من رجال المقاومة الشعبية كانوا كثراً. والحي ككل المناطق في الضفة والقطاع كان في حالة من اليأس والإحباط والفوضى والناس لا يدرون ما يفعل بهم.

مع كل صباح كان جدي يتناول عصاه (عكازه) ويخرج باحثاً عن ولديه سائلاً من يعرف ومن لا يعرف عنهما حتى ينهكه الإرهاق والتعب، وأمي وزوجة عمي التي لم تغادر دارنا منذ انتهاء الحرب إلى بيتهم، تجلسان في جوار الباب في انتظار عودته بخبر جديد، وهما تحترقان من الخوف والقلق من المصير المجهول لزوجيهما، وأخوتي وأخواتي وأبناء عمي كانوا يدركون ما يحدث جيداً، لكني كنت لا أزال أصغر من أن أعي حقيقة ما يجري حولي بالضبط. أمي وزوجة عمي شغلهما همهما من الاهتمام بنا فقامت أختي الكبيرة (فاطمة) بشيء من ذلك بتوفير شيء من الطعام لنا بين الحين والآخر، وبشيء من النظافة الضرورية التي لا بد منها.

مع غروب شمس أحد تلك الأيام موعد عودة الجد من رحلات بحثه عن ولديه، فتحت أمي الباب ترقب قدومه من أول الشارع، وبعد قليل ظهر الجد يتكئ على عصاه ولا تكاد تحمله وهو يجر قدميه جراً يوحي بأن الخبر الذي يحمله قد ناء به كاهله، صرخت والدتي على أخي الأكبر محمود بالجري لاستقبال جده ومساعدته فجرى محمود وبدأ ينظر إلى وجه الجد الذي غمرته الدموع، ورغم محاولات محمود سحب أي كلمة من فم الجد لم يفلح حتى وصلا باب البيت، فارتكز الجد على الجدار، ولم تعد قدماه قادرتان على حمله فبدأ يهوي بعد أن دخل الخطوة الأولى للبيت، فالتقفته أمي وزوجة عمي تنهضان وتسألانه ما الخبر؟ ماذا عرف؟ ماذا هناك؟ وقد بدأتا ترتجفان خوفاً وهلعاً عما يحمل من الأخبار، ولم يكن الجد قادراً على النطق مجرد النطق، ولا حتى على الحركة، فشارك كل من قدر على سحبه إلى داخل الغرفة وأجلسوه على فراشه، وجميع من في البيت يلتفون حوله ينتظرون كل حرف يخرج من بين شفتيه.